مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 07 العدد 02 جوان 2024 ص ص 75ـ95
ر س ع و (ISSN): 2602ـ618X / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

أثر عقيدة المرشدة التومرتية في نشر الأشعرية بالمغرب الأوسط

The impact of Ibn Tumart's doctrine on the diffusion of Ash'arism in the central Maghreb

محمد بن معمر♦

جامعة وهران1 أحمد بن بلة benmammar2005@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 14/ 02/ 2024 تاريخ القبول: 2024/05/26 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص: لقد وفدت على بلاد المغرب الأوسط من المشرق منذ مطلع القرن الثاني الهجري عدة مذاهب وفرق عقدية، ومنها الخوارج الصفرية والإباضية، والمعتزلة، والشيعة، ولكن أغلبها آل إلى الضمور وبقي على هامش الحياة، ولم يتمكن من الصمود في وجه الظروف الصعبة التي ألمت به، وهي الظاهرة التي شذ عنها المذهب الأشعري الذي نجح في التغلغل داخل هذه البلاد وكسب الرهان في آخر المطاف بعد تحول طويل تم على مرحلتين. أما المرحلة الأولى فقد امتدت حتى مطلع القرن السادس الهجري ساهم خلالها آحاد الأفراد من العلماء المغاربة والمشارقة في نشر الأشعرية. ثم تلتها المرحلة الثانية وفيها تبنّى المهدي بن تومرت، صاحب الدعوة الموحدية، المذهب الأشعري واتخذه مذهبا رسميا لدعوته ثم لدولته على عهد سلفه عبد المومن. وقد سلك في سبيل ذلك كل الوسائل المتاحة ومنها التأليف، حيث وضع تلخيصا في العقيدة سمّاه المرشدة، هذه العقيدة التي اشتهرت لدى علماء وعامة أهل المغرب الأوسط وغيرهم من المغاربة، فأقبلوا عليها بالدّرس والشرح، فكانت من أهم العوامل المساعدة على نشر المذهب الأشعري وترسيخه لعدّة قرون.

الكلمات المفتاحية: المرشدة؛ العقيدة؛ الأشعرية؛ المغرب الأوسط؛ ابن تومرت؛

Abstract: Since the beginning of the 2nd century of the Hegira, several doctrinal sects have arrived from the East to the central Maghreb, among which the Kharijites, the Mu'tazilites and the Shiites, but most of them have deteriorated and have remained on the sidelines of life, and could not resist the difficult circumstances which have happened to them. On the other hand, the Ash'arite

♦ المؤلف المرسل

doctrine managed to penetrate the central Maghreb, and finally to win the bet after a long transformation which took place in two stages. The first step extended until the beginning of the 6th century of the Hegira, during which a group of scholars helped to spread Ash'arism. Next comes the second step, during which Al -Mahdi Ibn Tumart, adopted the Ash'ari doctrine and takes it as an official doctrine for its appeal and then for its state at the time of its predecessor Abd al -mu'min. To this end, he used all the available means, including writing, where he wrote a summary of the doctrine he called Al-Murshidah. This doctrine has become famous among the scholars and ordinary people of the central Maghreb, who studied and explained it. Al-Murshidah was one of the most important factors contributing to the dissemination and consolidation of the Ash'arite doctrine for several centuries.

Keywords: Al-Murshidah; Doctrine; Ash'arism; central Maghreb; Ibn Tumart.

مقدمة:

تروم هذه الورقة البحثية طرح قضية مرشدة ابن تومرت في العقيدة وعلاقتها بانتشار المذهب الأشعري، فحتى مطلع القرن السادس الهجري لم يكن هذا المذهب قد استقرّ في المغرب الأوسط وبلاد المغرب الإسلامي عموما، ومردّ ذلك إلى كون المذهب نفسه لم يكتمل بناؤه إلاّ بعد فترة طويلة وعلى مراحل، وإلى كون الدّول القائمة آنذاك وهي الحمادية والزيرية والمرابطية مدعومة بالفقهاء الرسميين، كانت تتوجس من علم الكلام وتحارب أهله وتضيّق عليهم، حفاظا على العقيدة السلفية، وحماية للعوام من الزيغ والضلال. ولذلك جاءت محاولة نشر المذهب على يد آحاد الأفراد، أي أنّه كان مذهب النخبة العالمة التي قامت بجهود كبيرة تحدوها الرغبة في تطهير بلاد المغرب من آثار الشيعة.

ومع ظهور المهدي بن تومرت في مطلع القرن السادس الهجري وبعد عودته من رحلته المشرقية، عمل على نشر الأشعرية بكل الطرق والوسائل الممكنة، ومنها تأليف الكتب والرسائل، وفي مقدّمتها المرشدة في العقيدة، التي كان لها أبلغ الأثر في نشر الأشعرية، رغم قصرها، وظلت لعدة قرون محلّ اهتمام علماء وعامة أهل المغرب الأوسط

يتعهّدونها بالحفظ والدّرس والشرح. وخلال القرن التاسع الهجري اكتمل بناء المدرسة العقدية الأشعرية في المغرب الأوسط مع ظهور الإمام السنوسي صاحب العقائد الشهيرة.

1- عقيدة أهل المغرب الإسلامي قبل ظهور المهدي:

لقد وفدت على بلاد المغرب الإسلامي من المشرق منذ مطلع القرن الثاني الهجري عدة مذاهب وفرق إسلامية، ومنها الخوارج الصفرية والإباضية، والمعتزلة، والشيعة، المخالفين للتيار السني، ولكن أغلبها آل إلى الضمور وبقي على هامش الحياة، ولم يتمكن من الصمود في وجه الظروف الصعبة التي ألمت به. وهي الظاهرة التي شذ عنها المذهب المالكي الذي نجح، رغم الهزات العنيفة التي اعترضت سبيله، في التغلغل داخل هذه البلاد وكسب الرهان في آخر المطاف بعد تحول طويل تم على مراحل بطيئة. ويعود دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب الإسلامي إلى النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، حيث تركز في أول أمره بعاصمة إفريقية القيروان وقرطبة العاصمة الأندلسية ومنهما انتقل إلى المغربين الأوسط والأقصى. وإذا كان المذهب المالكي، غداة دخوله إلى بلاد المغرب، مذهبا فقهيا في الأساس فإنّ عقيدته كانت سنية سلفية قبل ظهور الأشعرية، ثم سرعان ما تأثرت المدرسة المالكية المغربية بالعقيدة الأشعرية وتبنّتها مذهبا رسميا وعلى مراحل أيضا.

وعن حال أهل المغرب في الاعتقادات في الفترة التي سبقت ظهور المهدي ابن تومرت وانتصار الأشعرية، يقول ابن خلدون واصفا ذلك: "وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه، اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، ففطن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد"[1].

1) عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر، مج 6، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ص 267.

ويؤكّد المراكشي ذلك قائلا: "كان جلّ ما يدعو إليه ابن تومرت علم الاعتقاد على طريق الأشعرية، وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه، شديدا أمرهم في ذلك"[2].

ويضيف المراكشي في موضع آخر، في معرض حديثه عن الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، أنّه لم يكن يحظى عنده من العلماء والفقهاء إلا من عَلِمَ عِلْمَ فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب المالكي، وعُمِل بمقتضاها، ونُبِذ ما سواها، وقرر هؤلاء الفقهاء عند الأمير المرابطي تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، وغيرها من الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعّد من وجد عنده شيء من كتبه، وكان من نتائج هذه الحملة أن تعرضت كتب أبي حامد الغزالي للإحراق والتهديد بالقتل ومصادرة الأموال لكل من وُجد عنده شيء منها [3]. وكما هو معلوم فإنّ فتنة إحراق كتب أبي حامد الغزالي كانت فتنة أندلسية في الأساس أي أن فقهاء الأندلس هم الذين أقنعوا الأمير المرابطي بذلك.

وأما الناصري فقد أجمل حال أهل المغرب في الاعتقاد على النحو التالي: "وأما حالهم في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهَّرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولا والرافضية ثانيا، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة، مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه، وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر، واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت في صدر المائة السادسة، فرحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة، وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها، مما يوافق عليه النقل والشرع، ويسلمه العقل والطبع، ثم عاد إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة، وجزم

2) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1978، ص270.

3) المصدر نفسه، ص 254.

بتضليل من خالفها بل بتكفيره، وسمى أتباعه الموحدين تعريضا بِأَن من خَالف طَرِيقَته لَيْسَ بموحد وَجعل ذَلِك ذَرِيعَة إِلَى الإنتزاء على ملك الْمغرب"[4].

2- المذهب الأشعري في المغرب الأوسط قبل ظهور المهدي:

ظل حال أهل المغرب الإسلامي، ومنهم أهل المغرب الأوسط بطبيعة الحال، في الاعتقاد، على النحو المذكور في نصوص ابن خلدون والمراكشي والناصري السابقة، إلى عهد ابن تومرت ورجوعه من رحلته المشرقية حيث عمل على تحويل الناس عن مذهب السلف إلى المذهب الأشعري، وقد تحدث غير واحد من علماء المغرب والمشرق عن دور ابن تومرت الكبير في تحويل المغرب الإسلامي إلى طريقة المتكلمين من الأشاعرة في الاعتقاد.

ولعل السبب في عدم وجود المذهب الأشعري متكاملا إلى عهد ابن تومرت يرجع بالدرجة الأولى إلى المذهب الأشعري نفسه، فعلى قول كثير من العلماء إن هذا المذهب لم يكتمل بناؤه على يد مؤسسه الأول، بل ظل يتطور حتى اكتمل على يد الإمامين الجويني والغزالي، أي أن المذهب الأشعري لم يصل إلى صورته النهائية إلا على مراحل.

في واقع الأمر ليس هناك مادة علمية كافية لتكوين رأي واضح متكامل حول صدى الأشعرية بالمغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا قبل دعوة ابن تومرت، ولكن هناك إشارات متفرقة في كتب التاريخ والتراجم تؤلف في مجموعها أرضية يمكن الاعتماد عليها في تكوين فكرة حول هذا الموضوع. ومما لا شك فيه أن أهل المغرب عرفوا المذهب الأشعري منذ وقت مبكر، وربما في عهد مؤسسه نفسه، أما اعتناق الطريقة الأشعرية في التصور العقدي فلم يكن وجوده بالمغرب قبل المهدي بن تومرت إلا وجودا محدودا في آحاد الأفراد[5]. أي أنّ المذهب الأشعري كان مذهب النخبة العالمة، وأن انتشاره كان محدودا بين هؤلاء، ولم يعرف انتشارا موسعا إلا مع الدولة الموحدية.

4) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 1، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954، ص 140.

5) إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب: دخولها، رجالها، تطورها، وموقف الناس منها، الجزائر: دار قرطبة، 2006، ص 10.

لقد ظلت القيروان، حتى منتصف القرن الخامس الهجري، المحطة الأساسية لاستقبال الأشعرية ونشرها، لأنها كانت مركز إشعاع علمي على كافة بلاد المغرب، ومرحلة مهمة من مراحل الرحلة إلى المشرق لأهل المغرب الأوسط وغيرهم، حيث كان يفد إليها الطلبة من كل جهة لتلقي العلم بها. ولما كان المغرب الإسلامي يعج بالفرق المختلفة من الخوارج والشيعة والمعتزلة جعل الكثير من أبنائه يرحلون إلى المشرق للحج ثم ملاقاة رجال الأشعرية.

ولعل أول رجل عرف الأشعرية في المغرب هو إبراهيم بن عبد الله أبو إسحاق الزبيدي المعروف بالقلانسي (ت 359هـ)، رجل صالح فقيه فاضل عالم بالكلام والرد على المخالفين، سمع من فرات بن محمد، وحماس بن مروان، ومحمد بن عبادة السوسي، وخلق كثير. روى عنه إبراهيم بن سعيد وأبو جعفر الداودي وغيرهما، امتحن على يد الفاطميين بالضرب، والحبس أربعة أشهر، بسبب تأليفه كتاباً في الإمامة والرد على الرافضة[6].

ومن معاصري القلانسي الذين عرفوا الأشعرية في وقت مبكر أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي(ت357)، وكان قد رحل إلى المشرق والأندلس ولقي فقهاء الإسكندرية والقيروان وقرطبة وأخذ عنهم وأخذوا عنه، لأن الرحلة إلى المشرق والأندلس وإفريقية كانت هي أساس التنمية العلمية، ومما جاء في وصف أبي ميمونة عند القاضي عياض نقلا عن أبي بكر المالكي أنه كان من الحفاظ المعدودين، والأئمة المبرزين، ومن أهل الفضل والدين، ولما طرأ إلى القيروان، اطلع الناس من حفظه على أمر عظيم حتى كان يقال: ليس في وقته أحفظ منه، وكان نزوله عند ابن أبي زيد، وظهر تقصيره بعلماء القيروان وتفوقه على كثير منهم[7].

وكان لظهور إمام الأشعرية في المشرق وحامل لوائها أبي بكر الباقلاني(ت403هـ) أثر كبير في دخول المذهب الأشعري إلى بلاد المغرب قبل ظهور المهدي، ومردّ ذلك إلى كونه أشعريا في الأصول ومالكيا في الفروع، لذلك وفد عليه طلبة المغرب يأخذون عنه المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية معا. وقد أخذ عنه من المغاربة مجموعة من العلماء

6) القاضي عياض السبتي، ترتيب المدارك، الرباط: وزارة الأوقاف، 1983، ج6، ص: 57.
7) المصدر نفسه، ج6، ص ص: 81 – 82

منهم عبد الجليل بن أبي بكر الربعي المعروف بالديباجي وبابن الصابوني، حيث صحبه مدة ثم رجع إلى المغرب وألف رسالة في الاعتقادات. ومنهم أبو عمران الفاسي (ت430 هـ) أحد المساهمين في نشر المذهب الأشعري في المغرب، فقد رحل إلى بغداد سنة 399 هـ وتلقى أصول المذهب عن القاضي الباقلاني الذي أعجب بذكائه وحفظه ولما رجع إلى القيروان وجلس بها وظهر علمه قصده الناس من كل جهة[8]. ولا شك أنّه بعد عودته إلى القيروان ما لبث أن شرع في غرس تعاليم الأشعرية في أذهان تلاميذه الكثيرين، ومنهم أهل المغرب الأوسط، الذين كانوا يتزاحمون على دروسه.

ومن علماء المغرب الأوسط الذين اشتهروا بالأشعرية عليّ بن أبي القاسم محمد أبو الحسن التميمي القسنطيني المتكلم الأشعري الذي رحل إلى المشرق ودخل دمشق وسمع الفقه من نصر بن إبراهيم المقدسي، ومنها رحل إلى العراق وقرأ على أبي عبد الله محمد بن عتيق القيرواني وغيره، ثم عاد إلى دمشق وهناك ألّف كتابا في الأصول سمّاه "تنزيه الإله وكشف فضائح المشبّهة الحشوية". وكانت وفاته بدمشق سنة 519هـ[9].

ولم تعدم صحراء المغرب الأوسط وتحديدا مدينة وارجلان في أواخر القرن الخامس الهجري الوجود الأشعري، مصداق ذلك ما أشار إليه الشماخي في معرض ترجمته لأبي محمد عبد الله بن محمد بن ناصر اللواتي الذي وصفه بنجيب النجباء وإمام الأدباء، المعتني بحفظ الأخبار وتقييد سير الأخيار، وقال إنّه قدم وارجلان سنة 450 هـ وهو ابن ثمان عشرة سنة، وذكر تحصيله العلمي، ونشاطه التعليمي وشراءه للكتب، وذكر أنّ صاحب الترجمة رأى، أثناء إقامته هناك، أهل وارجلان يقتلون جماعة من الأشاعرة، ولم يذكر سبب هذا القتل والدافع من وراءه[10].

وعموما فهناك العديد من آحاد الأفراد من أهل المشرق والمغرب ممّن كان لهم دور كبير في نشر المذهب الأشعري في المغرب قبل أن يصبح مذهبا رسميا على يد المهدي

8) المصدر نفسه، ج7، ص 243 - 248. وإثر وفاة الإمام الباقلاني انتشر أتباعه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، واستقر اثنان منهم، هما أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي وأبو طاهر البغدادي في القيروان حيث كان لهما بالغ التأثير.

9) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1984، مج 4، ص 349.

10) أحمد بن سعيد الشماخي، كتاب السير، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1992، ج 2، ص 100-102.

بن تومرت زمن دولة الموحدين، وقد ذكر أحد الباحثين طائفة منهم[11]. والظاهر أنّ العديد من هؤلاء المساهمين في نشر الأشعرية كانت تدفعهم الرغبة في إشعاع العقيدة الأشعرية في المغرب الأوسط وعموم بلاد المغرب الإسلامي المتلهّفة إلى مناهضة الشيعة والتحرر من نيرها.

3- عودة المهدي من رحلته المشرقية:

رحل المهدي بن تومرت إلى المشرق طلبا للعلم سنة 500هـ/1107م، وعاد إلى بلاده سنة 512هـ/1119م، وقد أجمل ابن خلدون حصاد هذه الرحلة العلمية في عبارة بليغة قال فيها: "وانطلق هذا الإمام راجعا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم، وشهابا واريا من الدين"[12]. وكانت أهم العلوم التي درسها ابن تومرت خلال رحلته المشرقية وتظلّع فيها وملك ناصيتها هي علوم العقيدة والحديث وأصول الدّين والفقه وأصول الجدل مع اللّسان العربي. وقد استوى في الشهادة بالتبريز للمهدي في هذه العلوم المعتدلون فيه من المؤرخين والمتحاملون عليه، فإلى جانب شهادة ابن خلدون السالفة الذكر، يصفه ابن الأثير بأنه فقيه فاضل عالم بالشريعة حافظ للحديث عارف بأصولي الفقه والدّين متحقق بعلم العربية[13]، وشهد له ابن أبي زرع بأنّه كان أوحد عصره في علم الكلام، وعلوم العقيدة، والجدل والفقه، راويا للحديث، حافظا له، عالما بالأصول له لسان وفصاحة[14].

إن الدّارس لحياة المهدي بن تومرت أثناء عودته من رحلته المشرقية، كما يرويها البيذق وابن القطان والمراكشي، يجدها في مجموعها أحداثا تدور كلّها حول أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي تعطينا الصّورة الواضحة التي دخل بها المهدي التاريخ، وهي صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر، طالب للظهور والجاه بمعارضة السلطة الحاكمة وإثارة الشغب، وهي بداية مناسبة لما رسمه لنفسه حين قرّر الظهور بمظهر المصلح الديني الثائر على واقع المجتمع وما فيه من مخالفات. ففي طريق العودة من الإسكندرية إلى مسقط رأسه بالمغرب الأقصى كان المهدي يجدّ في تغيير المنكر مركزا على

11) إبراهيم التهامي، مرجع سابق، ص 12-37.
12) عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، مج 6، ص 267.
13) عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص294.
14) علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط: الطبعة الملكية، 1999، ص 220.

عيبين أخلاقيين يبدو أنّهما كان متفشيين بالمغرب وهما اختلاط الرّجال بالنّساء، ومعاقرة الخمر وما يصحبها من لهو وطرب[15].

ولمّا وصل إلى العاصمة مراكش مقر السلطة المركزية دخل المهدي وأصحابه مرحلة مهمة في حياتهم، ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يصبح مقتصرا لديهم على عامة الناس، كما جرت العادة في بجاية ومتيجة وتلمسان وفاس ومكناس وسلا وغيرهما من إراقة الخمر وكسر آلات الطرب، بل إنّ المهدي أصبح أكثر جرأة ولم يخش السلطة أو رجالها حين اقتحم دائرة الحكام وحواشيهم يأمرهم وينهاهم، ويعمل على إثارة غضبهم واستفزازهم حتى يتعرضوا له بالحبس والأذى والطرد ومن ثم يزداد صيته ويكثر جمعه، كما استدرجهم إلى حلبة المناظرات العلمية.

وقد ظهر تفوق المهدي في تلك المناظرات التي أجراها مع فقهاء المرابطين، إذ كان يفحمهم وينتصر عليهم في أي مجلس يجمعه بهم، كما أبان عن تبحّره في مختلف العلوم وكشف عن علو كعبه في فنونها. ومن المدن التي جرت فيها مناظرة المهدي لهؤلاء الفقهاء مدينة فاس وفي ذلك يقول المراكشي "فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم فجرت له مناظرة كان له الظهور فيها لأنّه وجد جوّا خاليا وألفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع"[16].

وفي مراكش جرت المناظرة الكبرى بحضرة الأمير المرابطي على بن يوسف بين المهدي والفقهاء المرابطين وعلى رأسهم كبيرهم مالك بن وهيب ليختبروا ما عنده من علم، ولكن تفوق المهدي في أساليب الجدل التي اكتسبها من المشرق وتفوقه في علم الأصول أنهى المناظرة لصالحه وقطع فقهاء المرابطين وظهر عليهم وقهرهم، فأشاروا على الأمير بحبسه أو قتله حسدا من عند أنفسهم. فاضطر إلى مغادرة مراكش متوجها إلى مدينة أغمات التي استأنف بها مهمة التدريس والوعظ كما جرت بها مناظرة أخرى بينه وبين فقهائها انتهت أيضا لصالحه.

---

15) ففي بجاية فرّق بين النّساء والرّجال بالعصا يوم عيد الفطر، وأهرق الخمر بنفس المدينة، وفي تلمسان وجد زقافا فيه أصنافا من اللّهو فنهى عن ذلك وكسّر الدّفوف، وفي وجدة منع اختلاط الرّجال بالنساء عند الساقية العامة وأمر ببناء ساقية وصهريج عند الجامع للوضوء، وفي صاء منع بعض النسوة من الزينة كن يبعن اللّبن واعتبر ذلك منكرا دعا إلى تغييره، وفي فاس أمر أصحابه بأن يتفرقوا على الحوانيت المملوءة بالدفوف والقراقر والمزامير والعيدان والكيتارات وأن يكسروا جميع أدوات اللّهو هذه، وفعلوا ما أمرهم به رغم صراخ أرباب الحوانيت وشكايتهم للقاضي ابن معيشة. أبو بكر بن علي الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي بن تومرت، الجزائر: ش و ن ت، 1974، ص 44- 52.

16) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص270.

4- دور المهدي في نشر الأشعرية بين المغاربة:

لقد ربط المهدي بن تومرت دعوته وأفكاره العقدية بمشروعه السياسي والإصلاحي بشكل واضح وعملي، فأول ما قام به في هذا المجال هو إطلاق اسم الموحدين على أتباعه ومدرسته ودولته الجديدة، هذا الاسم الذي لا يمكن أن يفهم إلا في إطاره التاريخي والسياسي، ذلك أن ابن تومرت كرَّس مجهوداته النظرية والإصلاحية لمحاربة أعدائه التاريخيين المرابطين بما وسعه من الوسائل وما استطاعه من الذرائع، فمن التهم التي وجهها لهم أنهم مجسمة ومشبهة، وهذا يجعلهم يتنافون مع التوحيد والتنزيه الذي يفهمه الأشاعرة، وهذه ذريعة تذرع بها من أجل الثورة عليهم، والجمع بين الدعاية السياسية والعقدية والاجتماعية ضدهم.

وفي ذات السياق يؤكّد عبد الله كنون هذا الأمر حيث قال: ذلك أن أهل المغرب لعهد المهدي ورجوعه من رحلته المشرقية، كانوا، إلا قليل منهم، على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي، مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن أن تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين، ولكن هذا المذهب لم ينتشر ويسُد على مذهب السلف إلا بعد قيام المهدي بدعوته التي جند لها جنوده وحمل الناس عليها بدون رفق ولا هوادة، وساعده على ذلك أنه كان قد انتشر في المشرق وأصبح المذهب السائد الذي هزم مذهب أهل الاعتزال على ما كان له من التمكن والسلطان[17].

واضح من النصوص السابقة أن الانتشار الأوسع للأشعرية بالمغرب كان على يدي المهدي بن تومرت، وأن تعاليمه كان لها الدور الحاسم في اعتناق كافة أهل المغرب لهذه العقيدة إلى اليوم، وقد أوعز عبد المجيد النجار ذلك إلى جملة من الأسباب الأساسية ذكر منها بالأخص سببين اثنين:

الأول: صدى الأشعرية بالمغرب والتمهيد لها الذي سبق ابن تومرت متمثلا في اطلاع جمع من علماء المغرب على هذا المذهب واستيعابهم له، واعتناقه والتحمس له، دون أن يكون له حظ من الانتشار والعموم بحيث يصبح معتنق العامة من الناس، مما أنشأ في النفوس استعدادا لتقبله، خاصة وأنه في حقيقته ليس إلا تطويرا لمذهب السلف في الاعتقاد أضيف إليه العنصر العقلي في الاحتجاج والتأويل، فلما كانت الأذهان عامرة بالأصل تقبلت هذا التطوير بما سبق لها من العهد به طيلة ما يقارب القرنين.

17) عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، تطوان: مطبعة الشويخ، 1980، ص85.

الثاني: ما توفر للمهدي وخلفائه من سلطة سياسية استعملت في نشر آراء المهدي، ومن بينها آراؤه الأشعرية، ولا شك أن السلطة السياسية تتوفر لها من وسائل النشر المادية والمعنوية ما يساعد على تبليغ هذه العقيدة في أسرع وقت وأوسع رقعة حتى كان لها الظهور والرسوخ[18]. ولنا في ذلك أمثلة مشابهة عن فرض السلطة ونشرها للمذهب بالقوة، يتعلّق الأمر بالمذهب المالكي في الأندلس والمذهب الحنفي في الدولة العباسية، وهو ما أجمله ابن حزم في النص التالي "مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قِبَله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية. ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحي بن يحي كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه"[19].

وكانت هذه السياسة سببا في نشر مؤلفات المهدي وإشاعتها بين عامة الناس، وجرت بها دروس العلماء وشروحهم في مختلف الآفاق المغربية، وتداولتها الأيدي على مر الأيام، وتكونت بهذه المؤلفات مدرسة مغربية في أصول الدين ذات صبغة أشعرية، ونشط التدريس لهذا العلم والتأليف فيه بعدما كان مهجورا معدودا من البدع، مأمورا في عهد المرابطين بتجافيه، مشددا على من وقع الشك في الميل إليه، وقد قام على تنشيط هذه المدرسة ثلة من العلماء اعتنى بعضهم بمؤلفات المهدي خاصة، وجنح بعضهم الآخر إلى الاختصاص بما فيها من أشعرية فتوسع فيها ورجع بها إلى أصولها .

ولهذه العوامل كلها وَجدت الآراء الأشعرية للمهدي طريقها إلى الاندماج في تيار الفكر الأشعري العام، وجرى في نطاق هذا التيار درسها والاقتباس منها، والاستشهاد بها،

---

18) عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ص 441. ولما تولى الخليفة عبد المؤمن بن علي اعتنى بمؤلفات المهدي وأفكاره، وكان يقوم بنفسه بتدريسها، وكان يأمر بقراءة بعضها للتبرك عند القيام بعظائم الأمور مثل الحرب وسار على ذلك بنوه من بعده وقد وصف ذلك المراكشي قائلا: "لا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة، من حضور هؤلاء الطلبة والأشياخ منهم، فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه، كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء... فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه، فيقرؤون حزبًا من القرآن في نهاية الترتيل، وهم سائرون سيرًا رفيقًا، ثم شيئًا من الحديث، ثم يقرءون تآليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي... فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله". عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 484-485.

19) أحمد بن محمد ابن خلكان، وفيات الأعيان، بيروت: دار الثقافة، 1971، ج6، ص: 144.

إلى جانب غيرها من آراء سائر أئمة الأشعرية، وهذا ما ذهب إليه صاحب النبوغ المغربي حين قال: وألف المهدي لأصحابه عقائد مختصرة باللسانين العربي والبربري، فتأثر الناس خطاه وصنفوا في علم الكلام الكتب العديدة، وتحول الناس من المذهب السلفي في العقيدة إلى المذهب الأشعري تبعا للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأجمعه في هذا الأمر نتيجة لدعوة ابن تومرت[20].

5- أثر المرشدة في ترسيخ الأشعرية بالمغرب الأوسط:

ترك المهدي مجموعة من المؤلفات غطّت جملة من العلوم منها أصول الدين، والفقه وأصوله، والحديث، والدعوة والوعظ، مثل كتاب الطهارة، واختصار مسلم الصغير، وكتاب الغلول، وكتاب تحريم الخمر، والكلام على العبادة، والكلام في العلم، وكتاب أدلة الشرع، والكلام في العموم والخصوص، والمعلومات، والمحدث، والقواعد، والإمامة، والعقيدة الكبرى، وتوحيد الباري، وتسبيح الباري، وتسبيح آخر للباري، وما ذكر في غربة الإسلام في أول الزمان وغربته في آخره، وغيرها من المؤلفات التي جاء أغلبها ضمن كتاب أعز ما يطلب .

ولئن كانت مؤلفات المهدي عموما سببا في انتشار الأشعرية في أوساط المغاربة، لما كان من العناية بها وإفشائها بين الناس، فإن واحدا من تلك المؤلفات هو الذي كان له الدور الأكبر في إشاعة الأشعرية بين أهل المغرب عموما وأهل المغرب الأوسط خصوصا، وكان له الأثر البالغ في تحويل التصور العقدي المغربي من تصور سلفي إلى تصور يقوم على التأويل، ونعني بذلك "عقيدة المرشدة"، التي شاع ذكرها بين الناس عامتهم وعلمائهم، وجرت بها الألسنة حفظا وشرحا، وصارت على مر الأيام الخلاصة للتصور العقدي، وفيما يلي نصّها :

"اعلم – أرشدنا الله وإياك – أنه وجب على كل مكلف أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه، خلق العالم بأسره، العلوي والسفلي، والعرش والكرسي، والسموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، جميع الخلائق مقهورون بقدرته، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف، ولا كل ولا بعض، لا يتخصص في الذهن، ولا يتمثل في العين، لا يتصور في الوهم، ولا يتكيف في العقل، ولا تلحقه الأوهام والأفكار، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، ليس معه مدبر في الخلق، ولا له شريك في الملك، حي قيوم، لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ، يَعْلَمُ مَا

20) عبد الله كنون، النبوغ المغربي، الرباط: مكتبة دار الثقافة، 1960، ص121.

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، قادر على ما يشاء، له الملك والغناء، وله العز والبقاء، وله الحكم والقضاء، وله الأسماء الحسنى، لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء، لا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً، ليس عليه حق ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لا يقال متى كان ولا أين كان ولا كيف كان، كان ولا مكان، كوّن الأكوان، ودبر الزمان، لا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان، ولا يشغله شأن عن شأن، لا يلحقه وهم، ولا يكيّفه عقل، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"[21].

وقد حررت هذه العقيدة تحريرا بليغا عرضت فيها المسائل المتعلقة بالإيمان بالله تعالى ذاتا وصفات، دون أن تعرض لشيء من السمعيات، أو شيء مما يتعلق بالإمامة، وجاءت هذه المسائل مرتبة على النحو التالي: وحدانية الله، خالقيته المطلقة، خضوع الخلائق له، أزلية وجوده، تنزهه عن المكان والزمان، تنزهه عن الشبيه والمثيل، قيوميته، علمه المحيط بكل شيء، قدرته، إرادته، استغناؤه وعزته، بقاؤه، مشيئته المطلقة، عدله وفضله، سمعه وبصره.

يقول عبد الله كنون معلقا على هذه العقيدة: إنّ عقيدة المرشدة التي لقيت رواجا كبيرا في حياته وبعد مماته، وتلقاها أئمة العلم بالقبول، وحكموا عليه من خلالها بسلامة العقيدة وصحة المذهب، لا نشك أنها كانت من أول ما أملى من تآليفه ولقن أصحابه من العقيدة على مذهب الإمام الأشعري، لأنها بمثابة المقدمة في هذا الصدد من حيث الاختصار وعدم الاحتواء على الأدلة العقلية التي لا يدركها العموم كما في عقيدة التوحيد، ولأنها جاءت خالية من كل شبهة على ما كانت عليه دعوته أولا قبل أن يدعي المهدوية والإمامة والعصمة ويتجرد للعمل السياسي الذي أقام به بناء الدولة الجديدة وقضى على دولة خصومه المرابطين[22].

وعن دور المرشدة في تثبيت العقيدة الأشعرية بالغرب الإسلامي يقول محقق شرح المرشدة لأبي عبد الله محمد بن خليل السكوني: لاقت أفكار ابن تومرت قبولا حسنا، وظلت مصدرا أشعريا يعتمد عليه لفترة زمنية طويلة، فعقيدة المرشدة مثلا وهي عقيدة صغيرة لابن تومرت تَسَعُها صفحةٌ واحدةٌ، كتب لها الانتشار والاستمرارية وأن

21) المهدي بن تومرت، أعز ما يطلب، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 226.
22) عبد الله كنون، جولات في الفكر الإسلامي، ص 96.

تضطلع بكبير الأدوار في عملية تدعيم الفكر الأشعري بالغرب الإسلامي، فبقيت مصدرا أشعريا يتولاه الشارحون والمعلقون بالتحليل والتفصيل مدة زمنية طويلة، وما ذلك إلا لتوجهها الأشعري وتجردها من أية شائبة. وعلى الرغم من صغر حجم عقيدة المرشدة فإنها لاقت اهتماما كبيرا من طرف الشراح والمهتمين بها لأنهم كانوا يرونها عقيدة تعكس أشعرية المهدي بن تومرت، وهذا هو السبب الذي جعل مجموعة من الشارحين يتهافتون على شرحها في فترات زمنية مختلفة وفي أماكن من الغرب الإسلامي متباينة من الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان[23].

وقد لاقت المرشدة إقبالا كبيرا من لدن شراح الغرب الإسلامي، ذلك أن مجموعة منهم قاموا بوضع شروح عليها تفاوتت قيمتها ونوعيتها، إلا أن القاسم المشترك بينها هو طابعها الأشعري الواضح، وهكذا فقد وجدنا من الشراح مغاربة وجزائريين وتونسيين وليبيين كلهم هدفوا إلى توضيح معاني هذه العقيدة والكشف عن مضامينها، وتأكيد الدور الذي قامت به المرشدة في تثبيت دعائم المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، إذ شكلت وعلى امتداد قرون إطارا مرجعيا لأشاعرة الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا.

وكانت المرشدة مقروءة بتلمسان متداولة بها، وقد شرحها من علمائها أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن علي الأموي المعروف بابن النقاش، وسمى شرحه "الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة"، وقال إنّه شرح فيه ألفاظ العقيدة المذكورة على السبيل الظاهرة المأثورة من غير عدول على حد الاختصار، ولا ميل إلى تطويل ولا إكثار[24]

وكان صاحب هذا الشرح من الذين يولون احتراماً كبيراً للمهدي، حتى لكأنه من المؤمنين به مهدياً كما جاء في مقدمة شرحه قوله: "إن الإمام المهدي رضي الله عنه كان من حزمه وحرصه على هداية الخلق واستمرار كلمة الحق، أن سهل على الناس طرق الاستدلال، ووضع تصانيف للعقائد رفعاً للالتباس عليهم، وبياناً للإشكال، وكان يأتي كل قوم بلغتهم، وكل طائفة من بابها، حتى لقد رأيت له عقيدة باللسان البربري وبالمصمودي، ولم يزل رضي الله عنه على ذلك إلى أن اشتهرت الطريقة الدينية واتضحت الملة الحنيفية، فجزاه الله عن المسلمين خيراً، وجعل سعيه في ذلك للآخرة ذخراً، ورفع

23) أبو عبد الله محمد السكوني، شرح مرشدة محمد بن تومرت، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993، ص5-6

24) أبو عبد الله محمد ابن النقاش، مخطوط الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة. نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء، و13.

له به في الصالحين ذكراً بمنه وكرمه"[25] . وعلى الرغم من أن هذا الشارح ينتمي إلى التصوف، فإنه أجرى شرحه على الطريقة الظاهرة كما لاحظ هو ذلك، فجاء شرحه كلامياً تظهر فيه الدقة وسعة الاطلاع على المذاهب والأقوال الكلامية.

ومما يدلّ على تداول المرشدة بين الناس وشيوعها في أوساطهم قوله: "ولما كان من جملة ما وضع المهدي تقريباً لأفهام العامة، وتيسيراً على الكافة العقيدة المختصرة المنتظمة الكلام، الحسنة النظام، المرتبطة المعاني، المرسومة بالمرشدة، بادر إلى حفظها وقراءتها جماعة الفقراء والعلماء الأخيار، الذين اجتمعوا بتلمسان المحروسة على شيخهم وقدوتهم الشاب الأتقى الأعرف الصوفي السالك الناسك أبي عبد الله محمد بن الشيخ المبارك أبي زيد عبد الرحمان اليزناسني معلم كتاب الله، فكان لهم بمحبته أعلى مزية وأشرف رتبة، وسادوا بذلك على سائر الجموع أمثالهم في عصرهم، وانتفعوا بما يملي عليهم من فوائده، وينشر على أسماعهم من فرائده، مضافا إلى ذلك حسن التربية وكريم الأدب، وكان رضي الله عنه ممن نسب طريقه إلينا، وتمسك بطرف سلسلة إسنادنا، وممن أخذت بيده، وانخرط في سلك الآخذين عنا، وفي جملة المنتمين إلى طريقتنا"[26].

لقد شكلت المرشدة وعلى امتداد قرون إطارا مرجعيا لأشاعرة الغرب الإسلامي، حتى ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي[27]، عالم تلمسان ومجدّدها، وصاحب العقائد الشهيرة، ومؤسس المدرسة العقدية الأشعرية بالمغرب الأوسط، المتوفى سنة 895هـ /1490م. وهو من شراح المرشدة أيضا وكان ذلك بطلب من بعض أهل تلمسان كما جاء في قوله: "وبعد، كسانا الله وإياك لباس التقوى، وزحزحنا بمنه عن نار الشهوات والهوى، فإنك سألتني أن أقيد لك على كلام أبي عبد الله محمد المهدوي رحمه الله ونفع

---

25) المصدر نفسه، و12.

26) أبو عبد الله محمد ابن النقاش، المصدر السابق، ص 13.

27) ترجم له كل من: ابن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر، الرباط: مطبعة الكرامة، 2003م، ص: 109-111. التنبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989م، ص: 563-572. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م، ص: 237-248. الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982م، ص: 179-189. ولكن كل هذه المصادر وغيرها قد نقلت بالحرف أو بالتصرف عن الترجمة الأساسية والوافية التي خصّه بها تلميذه الملالي محمد بن عمر ووسمها بـ: "المواهب القدسية في المناقب السنوسية". ويتألف كتاب المواهب من مقدمة وعشرة أبواب، تناول فيها الملالي التعريف بأشياخ السنوسي، ومكاشفاته وكراماته، وعلمه وزهده ووعظه وورعه وحلمه وصبره، وتآليفه، وتفسيره لبعض الآيات القرآنية، وشرح الأحاديث النبوية، وشعره، ووفاته إلى غير ذلك مما يتعلق بحياته.

به في المرشدة ما يحلو سماعه ويروق دليله ونصوعه، فأجبت إلى ذلك مستعيناً بالله"[28]. وقد أكمل هذا الشرح بعض أصحاب السنوسي، ويظهر ذلك من قوله: "ولقد أحسن بعض أصحابنا بتكملة هذا المختصر، وذلك أني وقفت على قولي: والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون، لسفر شغلني عن تكملته في الحال".

والمعني بإكمال الشرح هو أبو زكريا يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر ابن أبي بكر المشهور بالتنسي ثم الهنيني، حيث ورد في آخر نسخة دار الكتب الوطنية بتونس من شرح السنوسي ما يلي: "كل ما وضع شرحاً لعقيدة المرشدة تأليف العبد الفقير إلى الله الغني به عما سواه، المتشبث بفضله وعفوه ورحمته، سائلاً منه رضاه، المغربي يحيى بن الفقيه المرجو له فضل الله أبي حفص عمر بن أبي بكر المغراوي المشهور التنسي ثم الهنيني لطف الله به ورحمه."

ومما يؤكد ذلك مقدمة نسخة خزانة الجامع الكبير بمكناس التي جاء في بدايتها: "الحمد لله وحده كما يجب لجلاله، والصلاة والتسليم على محمد نبيه وآله وأصحابه وأزواجه وذرياته وسلم تسليماً، هذا كتاب الأنوار المبينة لمعاني عقد عقيدة المرشدة على حسبها إن شاء الله تعالى، وهو المستعان لا رب غيره، تأليف العبد الفقير إلى الله تعالى الغني به عمن سواه المتشبث بفضله عفا الله عنه بمنه وكرمه أبي زكريا يحيى ابن الشيخ المقر بذنبه أبي حفص عمر بن أبي بكر المشهور بالتنسي ثم الهنيني غفر الله له ولجميع المسلمين."

وهذان الشرحان، كما يقول النجار، هما في الحقيقة شرح واحد كما يتبين بعد المقارنة بينهما، ولكنه نسب إلى السنوسي تارة كما في نسخ تونس والرباط، ونسب إلى التنسي كما في نسخة مكناس، ولما كان الشرح ثابت النسبة إلى السنوسي، أصبح الحل أن أصل الشرح من وضع السنوسي، ووضع التنسي إكمالاً له، فنسب إلى الأول باعتبار الأصل، وإلى الثاني باعتبار الإكمال، ويمتاز هذا الشرح بتدقيقاته الكلامية الطريفة، ولا غرو فإن مؤلفه من أساطين العقيدة بالمغرب[29].

كما عرفت المدرسة العقدية الأشعرية في المغرب الأوسط، خلال عصر الشيخ السنوسي وبعده، ظهور ثلّة من العلماء قاموا على تنشيطها منهم: أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني ت 899هـ/1494م، علامة تلمسان ومفتيها في عصره، أصولي بياني،

---

28) ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تونس: الدار التونسية للنشر، د ت، ص 210.

29) عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص 453.

من أكابر فقهاء المالكية. كان في أول أمره حائكا يعمل بنصف دينار، فرآه العلامة أحمد بن زاغو، فأعجبه ذكاؤه، فقال له: مثلك يشتغل بالعلم لا بالحياكة، وذهب الى أمه، وكانت أيّما، وتعهد لها بأن يعطيها في كل شهر نصف دينار وأن يفقه ولدها ويؤدبه، فرضيت، واستمر يشتغل بالعلم الى ان نبغ واشتهر. وقد أخذ عن الإمام ابن مرزوق والعلامة قاسم العقباني وغيرهما بالإضافة الى ابن زاغو. وأخذ عنه جماعة منهم الإمام أحمد زروق وحفيد الحفيد ابن مرزوق. من مؤلفاته: "مسائل القضاء والفتيا"، و"بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب" ومنظومة في علم الكلام أسماها "محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد" تنيف على 1500 بيت، و"فتاوى" نقلها الونشريسي في "المعيار" و"شرح الورقات لإمام الحرامين" في أصول الفقه[30].

ومنهم العالم المتصوف أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي السفاقسي الجزائري المالكي، كان من العارفين، وله قدم بارع في فنون التصوف والمعارف الروحانية، مع تفننه في علوم الفقه والحديث. وله عدة تصانيف مثل كفاية المريد، وشرح تصلية القطب ابن مشيش، ورسالة ذي الإفلاس إلى خواص أهل مدينة فاس، وغير ذلك. وكان الشيخ أبو محمد الهبطي إذا ذكره يثني عليه بالخير. وممن أخذ عنه أبو الحسن الأغصاوي. ولقي مشايخ وأخذ عنهم. ورد على أهل فاس مرتين، الأولى في أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشريف سنة تسع وخمسين في معرض الرسالة عن السلطان التركماني أبي الربيع سليمان شاه صاحب القسطنطينية، وكان فصيح العبارة غزير المعرفة كبير الشأن. توفي سنة 963هـ بالجزائر[31].

أما عن رسالته المسماة "رسالة ذي الإفلاس إلى خواص أهل مدينة فاس"، فقد تناولت موضوعا عقديا فكريا مهما يمثل جانب المناظرات التي دارت بينه وبين علماء فاس حول مسألة المنفي في الهيللة (لا إله إلا الله). ففي بداية النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، تمخض النزاع العنيف الطويل بين الوطاسيين والسعديين في المغرب الأقصى عن انتصار الجيش السعدي بقيادة محمد الشيخ الذي احتل فاس عاصمة الوطاسيين ودخلها منتصرا سنة 956 هـ-1549م وذلك بعد حصار شديد وقتال مرير حول أسوار وأبواب المدينة.

30) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989، ص 129-130.

31) ابن عسكر الشفشاوني، المصدر السابق، ص 114.

ولما دخل محمد الشيخ السعدي المدينة أخذ يوطد حكمه فيها، وكان من جملة ما قام به استدعاؤه لعلماء المغرب للاجتماع بفاس، وفي تلك الأثناء، والناس بالمدينة ما بين مؤيد للسلطان وبين حذر مترقب، وردت على علماء فاس رسالة الشيخ الخروبي المذكورة. وقد ذكر الخروبي في هذه الرسالة آدابا على قواعد الإسلام الخمسة وجاء فيها عن القاعدة الأولى وهي: لا إله إلا الله: "ومن الآداب ألاّ يتناول نفيك عند النطق بحرف النفي إلا ما ادعاه المشركون من الآلهة سوى الله تعالى، وليكن الحق جل جلاله ثابتا عندك في حال النفي والإثبات، فالنفي لما يستحيل كونه، والإثبات لما يستحيل عدمه"[32].

وبالطبع اطلع العلماء بفاس على نص هذه الرسالة الموجهة إليهم، ولا شك أن بعض عباراتها أثار نقاشا حادا، وفي هذا يقول صاحب الدوحة "فنقم الناس عليه هذه العبارة، أي العبارة المتعلقة بما يطلبه الخروبي من الآداب في فهم النفي والإثبات في لا إله إلا الله، ولما وقف الشيخ أبو محمد عبد الله الهبطي[33] على هذه الهفوة كتب جوابا للشيخ الخروبي. ويؤكد ابن عسكر أن جواب الشيخ الهبطي كان رصينا ولبقا بحيث اعتبر أن ما صدر من الخروبي إنما كان سبق قلم، وفي نفس الوقت يبين له مصدر خطئه، وبأن ما هفا به القلم لم يكن مقصودا، وأن لا إله إلا الله فيها نفى وإثبات فلا معنى للقول بأن النفي لا يتناول إلا بعض المنفي دون سائر ما دخل عليه لما يبرم على ذلك من عدم صدق الخبر وهو غير لائق..."[34].

ورأى الشيخ الهبطي أنه من حسن اللياقة والمجاملة أن يطلع الشيخ اليسيثني[35] مفتي الحضرة الفاسية على نص الجواب، ولمّا اطلع الشيخ اليسيثني على الجواب رأى أن

---

32) المصدر نفسه، ص 17.

33) هو الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي، اشتهر بدعوته الإصلاحية ومدرسته العلمية على النهج الصوفي السني، له بعض الآثار نظما ونثرا، واشتهرت ألفيته السنية التي انتقد فيها الأوضاع الاجتماعية السائدة في عصره، ويعد من أبرز تلامذة الشيخ الفزواني، وأخذ عن الهبطي الكثيرون، توفي سنة 963هـ، ترجم له الكثيرون وفي مقدمتهم ولده محمد الهبطي، وابن عسكر في الدوحة، ص 15-21، وابن القاضي في الجذوة، 470/2، وفي درة الحجال، ص 345.

34) ابن عسكر الشفشاوني، المصدر السابق، ص 17.

35) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليسيتني الفاسي، فقيه مالكي متكلم مفسر نحوي، من أهل فاس ولد سنة 897هـ. أخذ عن مشاهير منهم ابن غازي المفسر ويحيى السوسي وأبي العباس الزقاق وأبي عمران الزواوي وغيرهم. ودرس التفسير على الزقاق والحباك وغيرهما، رحل إلى المشرق فأخذ عن علماء تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة. فأخذ عن الزنديوي وغيره بتونس وعن الشمس وأبي الحسن البكري المفسر وغيرهما بمصر وعن العجمي ومحمد الحطاب وغيرهما بمكة. وعاد إلى فاس، فتولى بها الفتوى ودرس التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو والبيان. أخذ عنه كثيرون

لهجته غير قوية ولذلك كتب بهامشه تعليقا شنع فيه على الشيخ الخروبي ومما جاء في تعليقه: "إنما يتسلط النفي على الآلهة المعبودة بالباطل بوجه واعتبار، وهي ثابتة بوجه واعتبار"، ولما رجع الكتاب إلى الشيخ الهبطي وقرأ التعليق رأى أن صاحب التعليق وقع في خطأ شنيع، ولذلك حاول الشيخ الهبطي إقناع الشيخ اليسيثني بالرجوع عن خطئه فأبى الشيخ اليسيثني ذلك وأخذ يدافع عن تعليقه وملاحظاته، وكتب رسالة مطولة في الموضوع، وبهذا تحول النزاع من نزاع مع الشيخ الخروبي، إلى نزاع بين الشيخين الهبطي واليسيثنى.

واحتدم هذا النزاع بين الشيخين الهبطي واليسيثنى، وشغل الأوساط العلمية في ذلك الوقت، واستمر أكثر من ثلاث سنين، وأخذ الناس ينقلون أقوال هذا وذاك، وكل فريق يدعي أن الحق في جانب صاحبه، وفي سنة 959هـ كان هذا النزاع قد بلغ أقصاه، ولذلك حاول السلطان محمد الشيخ وضع حد له بعقد مناظرة بين الشيخين يحضرها العلماء وبعض رجال الدولة، ولكن هذه المناظرة سرعان ما تحولت إلى مؤامرة على الشيخ الهبطي كادت تودي بحياته من تدبير اليسيثني وأتباعه، لولا تعقل وحكمة السلطان السعدي محمد الشيخ الذي تفطن للمؤامرة وخيوطها وأنهى هذا النزاع واعتذر من الشيخ الهبطي وطيّب خاطره.

يتبين مما سبق أنّ أفكار ابن تومرت الأشعرية لاقت رواجاً كبيراً، وظلت مصدراً أشعرياً لكثير من الآراء الكلامية يعتمد عليه لفترة زمنية طويلة، والإشارة هنا إلى عقيدة المرشدة التي حظيت باهتمام واسع من طرف العلماء وطلبة العلم والشراح، حتى قيل عنها: إنها مرشدة رشيدة لم يترك المهدي أحسن منها وسيلة، فقد لقيت صدى كبيراً في الأوساط العلمية في أماكن متفرقة، وتهافت العلماء على شرحها، ولم يتخلف علماء المغرب الأوسط وعامته عن ذلك، بل كانوا من المهتمين بها شرحا وحفظا ودرسا.

الخاتمة:

يتجلّى من حصاد الفقرات السابقة ما يلي:

- دخول عديد المذاهب والفرق الإسلامية المشرقية الفقهية والعقدية إلى بلاد المغرب الإسلامي ابتداء من مطلع القرن الثاني الهجري.

ومنهم القاضي أبو الحسن السكتاني والمنجور المفسران ولازمه المنجور أحد عشر سنة إلى وفاته وانتفع به وغيرهما، توفي بفاس في السادس عشر من المحرم سنة 959هـ. له تآليف منها: جزء على التاجوري، الرد على مخلوف، الرد على الزقاق، شرح مختصر خليل، تأليف في حقوق السلطان على الرعية وحقوقهم عليه، وغير ذلك. أحمد المنجور، الفهرس. الرباط: دار المغرب، 1976، ص 14 و29.

- تحول المغرب الأوسط وبلاد المغرب الإسلامي عموما، خلال القرون الهجرية الأولى، إلى حلبة صراع عقدي بين تلك الفرق مثل الصراع الإباضي الإعتزالي، والسلفي الشيعي، والمالكي الإسماعيلي وغيرها.
- انتصار المذهب المالكي وكسبه للرهان في حلبة ذلك الصراع، واستعداده لتقبّل المذهب الأشعري في الاعتقاد.
- وصول المذهب الأشعري إل المغرب الأوسط على مرحلتين، الأولى حتى مطلع القرن السادس الهجري وقبل ظهور المهدي وطبعتها الجهود الفردية لآحاد العلماء المغاربة والمشارقة، والثانية منذ مطلع القرن المذكور وميّزتها الجهود الرسمية ممثلة في سلطان الموحدين.
- الدور الكبير الذي قام به المهدي بن تومرت في سبيل نشر المذهب الأشعري بطرق ووسائل مختلفة اثناء مرحلة الدعوة الموحدية، وكانت أبرزها الكتابة في باب العقائد ومنها المرشدة التي كان لها أبلغ الأثر البالغ في نشر المذهب.
- تحول الناس من المذهب السلفي في العقيدة إلى المذهب الأشعري تبعا للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأجمعه في هذا الأمر نتيجة لدعوة ابن تومرت.
- قيام علماء وعامة المغرب الأوسط بحفظها وتدارسها وشرحها على نطاق واسع لعدّة قرون حتى ظهور الإمام السنوسي عالم تلمسان ومؤسس المدرسة العقدية الأشعرية بالمغرب الأوسط.

قائمة المراجع:

- ✓ ابن أبي زرع علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط: الطبعة الملكية، 1999م.
- ✓ ابن الأثير عز الدين، الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي، 1983.
- ✓ ابن تومرت المهدي، أعز ما يطلب، تحقيق عمار طالبي. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
- ✓ ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م.
- ✓ ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، بيروت: دار الثقافة، 1971م.
- ✓ ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق الشاذلي النيفر. تونس: الدار التونسية للنشر، د ت.
- ✓ ابن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي. الرباط: مطبعة الكرامة، 2003م.

- ✓ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م.
- ✓ ابن النقاش أبو عبد الله محمد بن أحمد، مخطوط الدرة المفردة في شرح العقيدة المرشدة. نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء.
- ✓ التنبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989م.
- ✓ التهامي إبراهيم، الأشعرية في المغرب: دخولها، رجالها، تطورها، وموقف الناس منها، الجزائر: دار قرطبة، 2006م.
- ✓ الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982م.
- ✓ الحموي ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1984م.
- ✓ السكوني أبو عبد الله محمد، شرح مرشدة محمد بن تومرت، دراسة وتحقيق: يوسف احنانا. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م.
- ✓ الشماخي أحمد بن سعيد، كتاب السير، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1992.
- ✓ الصنهاجي أبو بكر بن علي، كتاب أخبار المهدي بن تومرت. تحقيق حاجيات، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م.
- ✓ القاضي عياض السبتي، ترتيب المدارك، الرباط: وزارة الأوقاف، 1983م.
- ✓ كنون عبد الله، جولات في الفكر الإسلامي. تطوان: مطبعة الشويخ، 1980م.
- ✓ كنون عبد الله، النبوغ المغربي. الرباط: مكتبة دار الثقافة، 1960م.
- ✓ المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1978.
- ✓ المنجور أحمد، الفهرس. الرباط: دار المغرب، 1976م.
- ✓ الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م.
- ✓ النجار عبد المجيد، المهدي بن تومرت: حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983م.
- ✓ الهادي روجي إدريس، الدّولة الصنهاجية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م.